يوم لا ظل إلا ظله الظلال كلها لله ملكه في الدنيا والآخرة فالحكمة في الإخبار بهذه الصيغة
هنا أن ظلال الدنيا وإن كان له جل جلاله فمنها ما قد جعله عز وجل ملكا للعبيد يملكونها بحسب
ما شرع لهم ذلك لا يتعدى فيه أحد إلا برضاهم حكما منه عز وجل ثم إن ذلك مثل ظلال الجدار أو المتملكة
وظلاله عز وجل لم يجعل لأحد عليها ملكا فمن احتاج إلى شيء منها أخذها دون عتب له على ذلك
مثل الظلال التي في الفيء أو التي قد أخرج عنها أصحابها الله عز وجل وسلبوها له وظلال الآخرة
وما فيها مباح بل كلها قد تملكت بالأعمال التي عملها العاملون الذين هداهم الله بفضله لتلك
الأعمال التي ثوابها بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم تسليما المؤمن في ظل صدقته يوم القيامة فكيف
فليس هناك لهم إلا ملك الأعمال كلها وكأنه صلى الله عليه وسلم تسليما يقول ليس هناك ظل إلا لمن عمل
هنا لله تعالى فلما أضاف أعمال البر هنا إليه كما قال عز وجل كل شيء هالك إلا وجهه أي ما كان
لوجهه فهو باق وينتفع به صاحبه في الدار ومن لم يكن لوجهه فهو وإن كان نفعه موجودا لصاحبه
في هذه الدار إذ المعيشة هناك حيث الحاجة إليه فهو هالك أي ليس ينتفع به وقد يتضرر به بل
يكون أبلغ في الهلاك وأضاف ثوابها في الآخرة إليه وفيه إشارتان عجيبتان إحداهما الإرشاد إلى الإخلاص
في العمل ولهذا قال بعض الفقراء الصدق والإخلاص علامة الخلاص والثانية هو رد الفرع إلى أصله
بإضافة الفرع الذي هو الظل إليه كما كان في الأصل في الدنيا مضافا إليه وهو من بديع الحكمة وفيه
على هذا من الفقه الحض على الأعمال الصالحة الأعمال الخالصة التي توجب هناك ذلك الظل المبارك
جعلنا الله تعالى ممن أجزل له منه الحظ بمنه وفيه دليل على عظيم قدرة القادر يؤخذ ذلك من
أن الأعمال هنا معان وهناك بهذا الخبر الصدق جواهر محسوسات وهنا بحث هل هذه السبعة
خصت بهذه المثوبة تعبدا لا يعقل لها معنى أو هي معقولة المعنى فإن قلنا إنها تعبد غير
معقولة المعنى فلا بحث وإن قلنا إن معناها معقول فما هو فالجواب والله تعالى أعلم أن العلة فيها
على وجهين أحدهما مخالفة النفس والهوى وما هو من الأكبر الموجبات لخير الدنيا والآخرة
لأنه جل جلاله قال ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى وقال صلى الله عليه وسلم تسليما
رجعتم من

رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس والوجه الآخر هو حقيقة الإخلاص
وقد قال جل جلاله وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين وقال صلى الله عليه وسلم تسليما إن الله لا يقبل عمل
امرئ حتى يتقنه قالوا وما إتقانه يا رسول الله قال يخلصه من الرياء والبدعة ونهي النفس عن الرياء هو عين
الإخلاص وكلا العلتين الحامل عليهما خوف الله عز وجل فاختصت هذه واحدة واحدة بقدر ذلك فأما
قوله عليه الصلاة والسلام الإمام العادل فإنه لما يمنعه من الظلم وقهر النفس على العدل مع تمكنه
من الظلم لقدرته عليه من طريق الحكم وقدرته على قهر غيره ولا أحد يقدر أن يصده عنه إلا شدة
خوفه من الله تعالى وقد جاء الحديث عن الذي أمر أهله أن يحرقوه إذا مات فلما مات فعلوا ذلك فجمعه الله
تعالى وقال له لم فعلت هذا قال من خشيتك يا رب فغفر له فشدة خوفه كان منجيا له وأما الشاب الذي
نشأ في العبادة فلأن العبادة هي قهر النفس وخروجها عن راحتها وحملها على المجاهدة والدوام
على ذلك مع قوة شهوات النفوس زمن الشباب فما حمله على ذلك إلا الخوف الشديد ولذلك
يروى عن بعض المتعبدين أنه كان يأوي إلى فراشه فلا يقدر على النوم فيقول اللهم إنك تعلم أن
خوف نارك منعني الكرى ثم يقوم فيصلي حتى يصبح وأما المتعلق قلبه بالمساجد فحقيقة الإخلاص
توجب تعلق القلوب بالعبادات وأرفع العبادات الصلاة وأرفع ما تكون الصلاة في المساجد فهو
مشغول بأعلى العبادات كما روي عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه كان يسمى حمام
المسجد لكثرة ملازمته إياه وأما تحاب الرجلين في الله فهو يوجب شدة الإخلاص منهما حتى
لم يبق للنفس شهوة ولا ميل لشيء من الأشياء إلا لله وبالله وأما الذي دعته المرأة ذات المنصب
والجمال فهذا العظيم في نهي النفس عن هواها والحامل على ذلك شدة الخوف من الله تعالى وهنا بحث
وهو لم قال المرأة مع هذين الوصفين الذين فيها فلأن ذات المرأة وحدها من أكبر الفتن وقد قال صلى
الله عليه وسلم تسليما ما ترك بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء وذكر الوصفين لأن كل واحد
منهما من أقوى البواعث في شهوة الجماع والرغبة فيها وقد قال صلى الله عليه وسلم تسليما تزوج
المرأة لجمالها وحسبها لأن ما ترغب النفوس في واحد فقط فإذا اجتمع أكثر من واحد كان أشد